

السلوك

تعريفه . علاقته بالخلق . نشأته وتطوره

يجوع الحيوان ، أو يظماً ، فإذا يفعل ؟

إنه يهجم على الطعام ، أو على الماء بغريزته ، فهي التي تدفعه لأن يأكل ، وهي التي تدفعه لأن يشرب ، وهي التي تدفعه لأن « يتزوج » حتى في الشارع إذا وجد « الفرصة » .

إن الحيوان يتحرك بفعل الغريزة ، فقط من غير أن يتصور غاية وإن كان يرمى إليها : تريده أن يمتنع عن الأكل إذا وجدته ، ولكنه لا يريد ، وتريده ألا يسرع إلى الماء خوفاً عليه ، ولكنه لا يريد ، وقد لا يريد جمع من الناس بعصيمهم ألا « يتزوج » حيوان في « الشارع » ، ولكنه لا يريد إلا أن يقضى « حاجته » .

فالحيوان يتحرك بفعل الغريزة وحدها . أما أنت أيها الإنسان فأنت تتحرك بالغريزة ، والعقل معاً . تجوع ، أو تظماً ، فتدفعك الغريزة إلى أن تأكل ، أو تشرب ، ولكنك تمتنع إذا لم تهئ لك الظروف ، والأسباب أن تأكل ، أو تشرب ، أو تتزوج ، كما يأكل ، أو يشرب ، أو يتزوج ، الإنسان . وأنت مع هذا ترمى إلى غاية معينة مرغوبة لك هي أن تحفظ ذاتك ، أو تحفظ نوعك : فأنت تتصور الغاية التي ترمى إليها ، وتشعر بلذتها إذا حصلت عليها ، أما الحيوان وإن كانت له غاية إلا أنه لا يشعر بها ، ولا يفكر فيها .

ولقد اصطلح الأخلاقيون على أن يقصروا كلمة « السلوك » على أفعال الإنسان الظاهرة كما اصطالحوا على قصر كلمة « أخلاق » على أفعاله الباطنة . فالسلوك إذن : هو : « أعمال الإنسان الارادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة » .

وهذا التعريف يمنع — على ضوء ما تقدم — ان يدخل فيه أعمال « الحيوان » لأنه وان كان « يتصور الغاية » إلا إنه لا يشعر بها ، ولا يفكر فيها .

ويمنع أيضاً أن تدخل فيه أعمال « الانسان » التي لا تتوفر فيها شرط « الفعل الخلقى » وهو : « أن يصدر عن إرادة حرة » . وبهذا يتميز العاقل على غير العاقل ، والعامى على غير العامى ، والسكران ، أو المجنون على غيرهما . فأذا لم يكن الفعل مراداً أى تأمر به الإرادة ، أو لم تكن هناك إرادة لتأمر به وتنتهى عنه ، فلا وجه للحكم على الفعل .

مثلاً : إذا هاج البحر وحطم السفن لا يعد فعله هذا سلوكاً يستوجب الحكم عليه لأنه ليس هناك إرادة صادرة من ذاتية بشرية أذنت بالفعل . ولذلك كان « زركسيس » الأشورى أحق حين أمر بجلد البحر لأنه حطم له ما كان جيشه مزعماً أن يعبر عليه من « آسيا » إلى « أوربا » فى مضيق « البوسفور » (١) .

كذلك ليس لنا أن نحكم على سطو الوحوش الضارية على الماشية لأن فعلها هذا صادر عن غريزة بلا إرادة ، وليس لنا كذلك أن نحكم على « مكره » ومن فى حكمه .

(١) علم أدب النفس للأستاذ « نقولا الحداد » ص ٨٩ .

وعلى الجملة لا يصح أن نحكم إلا على « السلوك » الذى هو فعل موجه بأرادة حرة .

وإذا كان « السلوك » هو صورة فعل الإنسان الظاهرة ، وكانت « الأخلاق » هى الصورة « الباطنة » فها هى علاقة « الصورة الظاهرة » بالصورة الباطنة أو ما هى علاقة السلوك بالأخلاق ؟ هل هى علاقة الدال بالمدلول ؟ على معنى أنا نحكم عليك بفعلك ، فأن كان حسنا ، قلنا : إن أخلاقك حسنة . وإن كان سيئا . قلنا : إن أخلاقك سيئة .

إن قلنا : بهذا . يرد علينا أن من الناس من هم على « أخلاق » طيبة غير أن ظروفهم التى تحيط بهم لا تمكنهم من أن يكونوا على « سلوك » حسن بالفعل . لضيق ذات اليد عندما يدعو داعى الإحسان مثلا ، أو لغير ضيق ذات اليد عندما تدعو فضيله أخرى مما تراه فى كثير من الأحيان .

وعلى العكس من ذلك قد ترى شخصا لا تعرفه « الأخلاق » أبداً لا فى قليل ، ولا فى كثير ، ولكنه فى بعض الأوقات يوجد بمقدار ما يوجد به عشرات من الناس : يوجد بذلك « رياء » أو « نفاقاً » أو « ملقا » حاجة فى نفس يعقوب قضاها . فهل يعد هذا على أخلاق طيبة ، وذلك على أخلاق سيئة ؟ لا

إذن . العلاقة بين السلوك والأخلاق هى علاقة الدال بالمدلول . لكن : ليس ذلك دائماً . لأن الأمر يتوقف مع ذلك على الظروف التى تحيط بك .

فالسلوك يختلف باختلاف الظروف ، فأحوالك الشخصية الذاتية

من : علم ، وجهل ، وغنى ، وفقير ، وقوة ، وضعف ، وصحة ، واعتلال ،
كل هذه تتدخل في سلوكك .

فأنت كريم ، ولكنك لا تستطيع أن تتبرع لمشروع ، وقد طلب منك ،
لضيق ذات اليد .

وأنت شجاع ، ولكنك لا تستطيع أن تلبى داعى الوطن ، فنذهب مع
من يذهب إلى الدفاع عنه لاعتلال في صحتك .

وأنت عالم نحرير ، ومرب قدير ، ولكنك لا تستطيع أن تضرب
بسمهم في « محو الأمية » لأنه ليس عندك من « الفراع » إلا ما به « تستجم »
و « إن لبدنك عليك حقاً » .

وهذه الظروف التى على ضوءها « يتكيف » سلوكك منها : ما هو وقتي
عارض ، ومنها ما هو عادى ثابت : فملك عادى ثابت ، وغناك وقتي
عارض ، أو من شأنه أن يكون كذلك . ومعرفتك للسياسة ، عادى ثابت ،
وضعفك وقتي عارض . وهكذا يتوقف « السلوك » الأدبى على « الظروف »
التي تحيط بك أياً كان نوعها .

نشأة السلوك وتطوره

نحدد الموضوع ونرسم خطوطه قبل أن نخوض في تفاصيله .

هل المقصود من هذا الموضوع أن نذكر شيئاً عن تاريخ « الغرائز » ؟
إن قيل هذا كان الموضوع ليس خاصاً بالسلوك الإنسانى ، بل عاماً يشمل
الإنسن والحيوان لأن الغريزة مصدر حركة عند الإنسان وابن عمه الحيوان .
أو هل المراد أن نأتى بشيء عن تاريخ الغريزة الخاصة بالإنسان والتي لولاها

لبقى حيواناً وهى « الاستعداد للتعلم » ؟ — سميت هذه غريزة وإن كانت فى الأصل عادة اقنضتها العوامل البيئية من جهة والعوامل الاجتماعية من جهة أخرى لأن العادة متى تسكررت وانتقلت من جيل إلى جيل أصبحت بعد عديد من الأجيال غريزة - وإن قلنا بهذا أيضاً أهملنا جانباً من أعمال الإنسان التى تدفع إليها غريزة هى عند الحيوان والإنسان إلا أنها ترقى عند الإنسان وتأنقت بتدريب العقل . على أنى لماذا أذهب إلى كل هذا « التشفيق » وقد حددنا السلوك الذى تتكلم عن نشأته وتطوره بأنه : « أعمال الإنسان الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة » .

فالمراد إذن من هذا الموضوع هو أن نعرف شيئاً عن هذه الأعمال — أعمال الإنسان الإرادية ... — : كيف نشأت وتطورت حتى وصلت إلى هذه القواعد العامة التى أجمعت عليها الأذواق ، وتوافرت على الأخذ بها الطبقات المهيمنة فى الأمم الراقية .

ولأجل أن نعرف شيئاً عن نشأة السلوك الإنسانى لابد أن نتساءل : هل « بذرة السلوك كانت فى أصل الإنسان الأول ؟ على معنى أن الفرائز كانت موجودة فى أصل هذا الإنسان وورثنا عنه ، أو هى عادات اكتسبها الإنسان على مر الأحيال والقرون ؟ » .

بديهى أن نقول : إن الفرائز مولودة مع الإنسان الأول ورثها عن أصله وكل ما هنالك أن هذه الفرائز تهذب ، وترقى ، وتقدمت فى الإنسان وبقيت على أصلها عند الحيوان .

يقول السير « أرثر كيت » ، فى كتاب « تاريخ العالم » الذى نشره

بالإنجليزية السير « جون . ا . هامر تين » وترجمته وزارة المعارف العمومية
ص ٣٢٧ تحت عنوان « الأصل الأول لروح القبيلة » يقول :

« لا حاجة بنا إلى الوقوف لاستقراء الوسيلة التي تم بها تأصل المشاعر
الأساسية في حياة الإنسان العقلية : مشاعر العطف والحب . والبغض
والحسد . والتنافس والتفاخر ، فإذا كان في وسعنا أن نعتقد ، أن في
الطبيعة قوى تستطيع أن تخلق أداة جميلة مثل « العين » و « الأذن » فكيف
نتردد في القول بأن خواص العقل الانساني الاجتماعية التي تنظم شئون
الإنسان قد نشأت على هذا المتوال . . . وكان من أشد الرغبات تأصلا
في نفس الانسان رغبته الملمحة في أن يفوز بحسن ظن جيرانه فيه ، وكان يبذل
في هذا السبيل كل ما في وسعه من جهد ، وهذا الشعور القبلي الطبيعي
المتأصل في النفس البشرية يعمل على الدوام لخير القبيلة . . . وليس ثمة
ما يحير الفلاسفة أكثر مما في طبيعة الإنسان من متناقضات : فالحب والبغض
والقسوة والرحمة ، والأمل والخوف ، والشجاعة والجبن ترى كلها في الفرد
الواحد ، ونرى الإيمان والثقة المتبادلة يتعاقبان في النفس الواحدة مع
الريبة والخيانة ، ونرى الغيبة والأثره الكاملة تظهران في أثر الإحسان
وكرم السجايا .

وفي وسع المرء أن يكون في لحظة ما مؤدبا دمث الأخلاق ، ولكن
في وسعه أيضا أن ينقلب فظا وقحا في لحظة أخرى ، وتراه في الوقت عينه
مُصدِّقا ومرتابا كما تراه في ظروف خاصة يقتل ، ويسطو ، ويسرق ،
ويخرج على كل الوصايا العشر ، وترى هذا الإنسان نفسه في ظروف أخرى

يهب للمعوز والفقير ، ويضحى بحياته ليثأر لعدوان وقع عليه .

وفى وسعنا أن نرى كيف اكتسب الإنسان هذه الطبيعة المزدوجة إذا درسنا الأحوال التى سار فيها تطور الإنسان من ماضيه إلى حاضره ، وهى أحوال لانزال نشاهدها ، ونستطيع دراستها فى نواح قاصية من الأرض ، وقد نشأ نصفها الطيب ليستخدمه فيما بينه وبين جماعته ، أو قبيلته كما نشأ نصفها الخبيث ليستخدمه فى خارج قبيلته . فالنصف الطيب يُقوى القبيلة من الداخل ، والنصف الخبيث يقويها من الخارج .

وعلى هذا تدرج الانسان فى سلوكه من الغريزة إلى العمل لخير القبيلة .

يستخدم ما فى طبيعته من خير داخلها ، وما فى طبيعته من شر خارجها يعدل داخلها ، ويظلم خارجها . يرحم أبناءها ويقسو على غيرهم ، وقد يضحى بنفسه فى سبيل قبيلته ، فى الوقت الذى ينجو بنفسه إذا ما أحاط بغيرها شر ، وهكذا كانت قواعد السلوك ليست عامة ، بل هى خاصة . تدور فى دائرة ضيقة .

ولما تألفت القبائل ، وتوحدت ، وأصبحت أما أخذت دائرة قواعد السلوك تتسع شيئاً فشيئاً حتى أصبح للسلوك الإنسانى « قواعد عامة ثابتة صالحة لكل زمان ومكان » ، فمثلاً كان العربى يفهم من هذه القاعدة « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » يفهم منها أن ينحاز إلى أخيه فى قبيلته سواء أكان الحق بجانبه أم بغير جانبه ، فلما جاء النبى صلوات الله عليه فسّر لهم هذه القاعدة على نحو لا يتمشى إلا مع « الحق والعدل » حيث فسّر « نصر الظالم » بأن ترده عن ظلمه . وهكذا أخذت تتسع دائرة السلوك حتى وصلت إلى

هذه القاعدة الذهبية التي لا يستطيع عقل أن يصل إلى أحسن منها وهي :
« لا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يفعل بك » .

يقول « ول ديورانت » في كتابه قصة الحضارة ^(١) إن السلوك الإنساني عرف النص على هذه القاعدة قبل « هلال » بأربعة قرون ، وقبل المسيح بخمسة ويقول « كنفوشيوس » « ٥٥١ ق م » : « الرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريقا عاما ، ويكون سلوكه بحيث تتخذ جميع الأجيال قانونا عاما ، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ » .

ولو قارنت قول « كانت » : « لتكن إرادتك بحيث يمكن أن تكون القاعدة التي تسير عليها في أعمالك قانونا عاما شاملا » لو قارنت قوله هذا بقول « كنفوشيوس » حكيم « الصين » المتقدم فهل ترى فرقا ؟ !!!

وقد يكون من الحسن هنا بهذه المناسبة أن أذكر لك دستور السلوك للرجل الأعلى كما وضعه « كنفوشيوس » يقول :

« يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور لا ينفك يُقَلِّبُها في فكره . فأما من حيث عيِّناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح ؛ وأما من حيث وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشا ظريفا ؛ وأما من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقورا ؛ وفي حديثه يحرص على أن يكون مختلصا ؛ وفي تصرف شئون عمله يحرص أن يبذل فيه عنايته ، وأن يبعث الاحترام فيمن معه ؛ وفي الأمور التي يَشْكُك فيها يحرص على أن

الجز الرابع ص ٥٨ ترجمة الأستاذ محمد بدران .

يسأل غيره من الناس ؛ وإذا غضب فمكر فيما قد يحجره عليه غضبه من الصعاب ، وإذا لاح له المكاسب فمكر في العدالة والاستقامة .

فهل لك أن تكيف سلوكك على هذا الدستور ؟

ولو رجعنا بعد هذا ننظر إلى واقع الأمر على مسرح هذه الحياة بعد أن رأينا أن السلوك الانساني قد مشى في طريقه يتعثر آنا ، وينهض أخرى حتى وصل إلى قواعد عامة أجمعت عليها الأذواق ، وتوافرت على الأخذ بها الطبقات المهيمنة في الأمم الراقية فأنا نرى أن الأحقاد التي تقوم بين الدول في هذه الأيام تعمل ما كانت تعمل العداوات القديمة بين القبائل من تفرقه وانفصال .

إن روح القبيلة وآثارها لا تزال واضحة جلية بين الدول بعضها مع بعض ، بل بين الأحزاب والطوائف في الأمة الواحدة ، وترى ذلك أظهر ما يكون بين السياسيين حيث ينظمون أنفسهم أحزابا متنافسة : كل رأى أو عمل يفوز بتأييد الحزب الذي تنتمي إليه فهو الرأى السديد والعمل الصائب ، وكل رأى أو عمل لا يفوز إلا بتأييد الحزب المعارض فهو رأى خطأ ، وعمل شاذ . ألسنت ترى هذا حتى في أرقى الأمم الآن ؟

إن السلوك قد وصل نظريا إلى أرقى القواعد الانسانية ولكنه عمليا لا يزال في حاجة ماسة إلى عناية كبرى حتى يصل إلى درجة « الإنسانية »

يظهر أن الانسان كلما صعد في سلم الحضارة ، والمدنية إزداد اتجاهها إلى « الحيوانية » ويكفى أن ترى أن الانسان قد وصل إلى تفتيت « الذرة » ولكنه بدل أن يستعملها في الخير يستعملها في إهلاك الناس ، وبعث

الخوف فى نفوس بنى آدم ، وإن الانسان قد وصل إلى « الرادار » ولكنه بدل أن يستعمله فى الخير يُرهب به الناس ويستبقيه إلى يوم « الشر » . وإن الانسان قد وصل إلى « الراديو » ولكنه بدل أن يقصره على بعث أسباب الرحمة يستغله فى « التفرقة » وإشاعة « الذعر » بين بنى الإنسان .

إن السلوك الإنسانى ينبغى أن يقوم على تطبيق نوازع الفضيلة على الحياة اليومية للناس ، فإن السبب الأساسى لهذه « الأزمات » الاقتصادية وغير الاقتصادية يرجع أولاً وقبل كل شىء إلى الأخلاق ، ولوا اتبعت فى السلوك أحكام « الأمانة » المطلقة ، و « الصدق » ، وحُب الخير لذهب أكثر المشاكل ولساد الرخاء الناس .

وخير ما يساعد على بعث السلوك الحسن اتباع تعاليم الدين فهى خير ما يهتديك إلى طريق الخير ، وخير ما يؤصلك إلى الحياة الطيبة ، وصدق الله العظيم : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً »